نشأة وتطور الحركة النقابية العمالية البريطانية في العهد الفكتوري (١٨٣٧-١٩٠١م)

د. صباح مهدي ويس و م. فواز مطر نصيف
كلية التربية – قسم التاريخ

المقدمة

فنقابات العمال هي وليدة الثورة الصناعية ، ولم تنشأ لوجود نظرية جديدة في الإصلاح الاجتماعي ، وقد قامت النقابات الواحدة تلو الأخرى في جميع الصناعات وفي مختلف أنحاء البلاد.حتى وجدت هذه النقابات نفسها بحاجة إلى ممثلين برلمانيين خاصينَ بها كي يتسنى لها تحقيق مثل هذه الإصلاحات ، ثم مضت فترة من الزمن ناصرت نقابات العمال ممثلي حزب الأحرار البرلمانيين ، ثم ظهرت حركة جديدة تهدف إلى تأليف حزب مستقل بطبقة العمال ، ومن ثمرات هذه الحركة تأليف لجنة تمثل العمال عام ١٩٠٠ ، وهي اللجنة التي غدت عام ١٩٠٦ وما بعده تعرف بحزب العمال .

توزَّع البحث على مقدمة ومبحثين خُصِّصَ الأول منهما لمعالجة نشأة الحركة النقابية من بداية القرن التاسع عشر حتى منتصفه.

أما المبحث الثاني فقد تناول تطور الحركة النقابية من منتصف القرن التاسع عشر حتى نهايته٠ اعتمد البحث على عدد من الكتب التي ألفت باللغة الإنكليزية المترجمة منها وغير المترجمة نظراً لندرة الكتب العربية التي عالجت هذا الموضوع.يأمل الباحث بأنه قدم إنجازا عن تاريخ الحركة العمالية البريطا٠٠٠٠٠٠ ومن الله التوفيق

المبحث الأول: نشأة الحركة النقابية من بداية القرن التاسع عشر حتى منتصفه

قدم العمال في بريطانيا في تلك المدة صفحة مليئة بالدروس النضالية ، فقد ناضلوا لتنظيم صفوفهم رغم وجود قوانين تحرم عليهم التنظيم وتمنعهم من حرية العمل ، منها قانون عام ١٧١٨ ، الذي منع إنشاء الجمعيات العمالية من أي نوع كانت وأوامر العام ١٧٩٩ التي دعمت القانون السابق[١]. وقانون العام ١٨٠٠ الذي حرم إنشاء النقابات[٢]. ومع هذا فقد تكونت جمعية عمال النجارة في برستول في العام ١٨٠٧ ، وكان لها علاقة منظمة بجمعيات مماثلة في لانكشير Lancashire ، وفي العام ١٨١٣ كوَّن عمال صناعة البراميل منظمة خاصة بهم . وقامت إضرابات عمالية عديدة فكان إضراب عمال المناجم في الساحل الشمالي الشرقي عام ١٨١٠ وإضراب في اسكتلندا في العام ١٨١٢ ، وفي ويلز الجنوبية في العام ١٨١٦ وإضراب غزالي لانكشير في العام ١٨١٨[٣]. ولم يكتفِ العمال بالإضرابات وإنما قاموا بمحاولة تخريب وتدمير المكائن الجديدة[١] ، التي تسببت في بطالتهم وسوء وضعهم ولكن هذه المحاولة قمعت بشدة وأعدم قادتها[٢].

(1) Alan Bullock. World History Civilization Its beginnings. London 1962.P.255.

(2) WWW. Ask. Com.P.1 .

(٣) عبد المنعم الغزالي الجبيلي ، تاريخ الحركة العمالية والنقابية في العالم ، بيروت ١٩٦٤ ، ص٤١-٤٢ .

لقد كانت حكومة بريطانيا المحافظة قبل سنة ١٨٣٠ تساند التسوية التي تمت في العام ١٧٨٩[٣] . ولكنها اتبعت سياسة محافظة في الأمور الداخلية ، وقاومت كل مطلب في إصلاح البرلمان إذ ضاعفت الحرب مع فرنسا[٤] من نتائج الثورة الصناعية والزراعية ، التي غيرت وجه الحياة في بريطانيا وأقدمت الحكومة على إغلاق النوادي الراديكالية ، منها جمعية المراسلات في لندن وأسكتت السنة زعماءها إما بالنفي والإبعاد ، وإما بالتخويف والإرهاب ، وبدت قضية الإصلاح وكأنّ جذوتها قد انطفأتْ وحلَّ اليأس وعدم المبالاة محلَّ الآمال المتألقة ، التي عمرت بها قلوب المصلحين الإنكليز ، وانتصرت الرجعية ولم تدخر جهداً في إخماد جذوة الثورة[٥].

بعد سقوط نابليون ضاعف الكتّاب والخطباء مجهوداتهم في حمل طبقات العمال على المطالبة بالإصلاح ، فأسست النوادي لتبث الدعوة ونظمت المظاهرات لتظهر للحكومة قوة الشعور العام ، وحينما حاولت الشرطة منع هذه المظاهرات قامت بينهم وبين جماهير المتظاهرين كثير من المعارك ، كانت تنتهي بقتل أو جرح عدد غير قليل من السكان كما حدث في مدينة مانشستر Manchester في العام ١٨١٩ ، وقد انزعجت الحكومة من شدة الشغب واضطرت إلى إصدار قوانين قيَّدت حرية الصحافة والخطابة والاحتجاجات العامة ، لكن محاولة البطش بهذه الحركة لم تستمر طويلاً ، إذ انضمَّ إلى العمال جماعات كبيرة من أغنياء التجار والصناع ، وطالب الجميع بضرورة تغيير ذلك النظام الذي كان يحرمهم من حقوقهم السياسية[٦] ، فقامت حركة قوية لإلغاء القوانين المقيّدة لحرية العمال وحقهم في التنظيم ، واشترك في هذه الحركة عناصر ليبرالية تمكنت بجهد وعمل متواصلينِ من تكوين لجنة برلمانية في العام ١٨٢٣ لدراسة ظروف عمل ومعيشة الطبقات العاملة ، وقد انتهت هذه اللجنة إلى التوصية بضرورة السماح بحرية إنشاء الجمعيات والكتل العمالية ، ووافق مجلس اللوردات والعموم على توصية اللجنة ، واتخذ قراراً بذلك في العام ١٨٢٣[٧] حلَّ محلَّ قوانين الاتحاد للعام ١٧٩٩ والعام ١٨٠٠ اللذينِ كانا يحرّمان إنشاء النقابات[٨].

وما أنْ صدر قرار العام ١٨٢٤ حتى هزت المراكز الصناعية سلسلة من المنازعات والإضرابات العمالية ، وواجه أصحاب الأعمال هذا النضال بالاحتجاج على قرار العام ١٨٢٤ وطالبوا بإلغائه ، فتكونت لجنة تحقيق جديدة ولكن هذه اللجنة لم تلغِ مبدأ حرية الاتحاد والتنظيم وإن

---

(١) حاول العمال تخريب المكائن بوضع الأحذية القديمة في داخلها وقد سمي هذا تخريباً Sabotage . من كلمة حذاء باللاتينية واستعمل هذا الاصطلاح في القضايا السياسية ومنه مخرب Saboteur . كارتلون هيز ، التاريخ الأوربي الحديث ، ترجمة الدكتور فاضل حسين ، بغداد ١٩٨٧ ، ص١٠٩ .

(٢)المصدر نفسه .

(٣) أي لائحة الحقوق Bill of Rights وسيادة القانون .

(٤) أي الحروب النابلوينية .

(٥) أ . لبسون ، ما أسدته الأرستقراطية الجديدة ذات الثراء لإنجلترا ، الفصل السادس والستون بعد المائة ، نمو الطبقة الوسطى ، نشرها بالإنكليزية السير أ. هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد السابع ، أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي ، مصر (ب ت) ص٦١٦ .

(٦) محمد مبروك نافع ، أوربا في القرن التاسع عشر ، صفحات من تاريخ الصراع بين الشعوب والحكومات ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٧) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٢ .

(٨) . WWW. Op. Cit. P1 .

حدَّت منه وقصَرت النشاط على المطالب الخاصة بالأجر وساعات العمل ، وبهذا التعديل عرفت الحركة النقابية نظام نصف حر . وفي ظل هذا النظام ازدهرت الحركة النقابية ، وتكونت اتحادات وجمعيات لمهن عديدة لم تتكون لها تنظيمات من قبلُ[١] ، لكن الأزمة الاقتصادية التي اكتسحت النظام الرأسمالي ابتداءً من العام(١٨٢٥) تأثرت بها بريطانيا في ١٨٢٦–١٨٢٨ ، فأغلقت مصانع عديدة ، وتعطل الآلاف وهبطت الأجور ، وانعكس ذلك على الحركة العمالية وتنظيمها فعانت الجمعيات العمالية ضعفاً شديداً ووهنت قدرتها ومقاومتها واختفى كثير من الجمعيات والاتحادات الوطنية[٢] ، ومع هذا اتجهت الحركة العمالية إلى أسلوب العمل السياسي .

اتخذت الحركة العمالية شعار (لنحصل على حق التصويت حتى نتمكن من تغيير الأوضاع السيئة) ، وهكذا أصبح النضال من أجل حق التنظيم والعمل ومستوى حياة أفضل نضالاً سياسياً فقامت حركات وتنظيمات عمالية ذات طابع سياسي[٣].

أسفرت جهود العمال في العام ١٨٣٠ عن تشكيل الجمعية الوطنية لحماية العمال ، وكانت من أبرز التنظيمات في تلك المدة من حياة الحركة العمالية ، فقد كانت تنظيماً طبقياً اختلف بطابعه الطبقي عن النقابات الحرفية والمحلية المتناثرة ، وبلغ عدد المنضمين لها عشرين ألفاً من مختلف المهن ، وكان من بين أهدافها علاوة على النضال من أجل رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل ٠العمل على منع ذلك الجزء من المجتمع الذي لا يعمل المتصف بالجهل وغير المفيد في إدارة المجتمع ، والسعي لخلق أوضاع جديدة تسمح لقطاع المجتمع العامل بإدارة الأشياء ، ودعت في لوائحها إلى استخدام سلاح الإضراب ، وإلى إنشاء المحلات التعاونية خلال الإضراب ، ولكن هذه الجمعية سريعاً ما اختفت أمام العقبات العديدة التي لم تتمكن من التغلب عليها ، ولكنها كانت بداية لنشاط تنظيم له طابع سياسي وخاص بالعمال[٤]. وفي العام ١٨٣١ أسست الجمعية الوطنية لحماية العمال في لندن ، وقد وصل عدد أعضائها إلى ٩٠٠٠ عامل ، إلا أنّ جهودها لم تثمر في إعلان حقوق العمال مما أدى إلى فشلها[٥].

وطلب الأحرار أو دعاة الإصلاح بزعامة اللورد جون روسل John Russell[٦] من مجلس العموم العموم المرة بعد الأخرى بضرورة الإصلاح النيابي[٧].

حدثت في باريس في العام ١٨٣٠ ثورة تموز التي قضت على حكم شارل العاشر الأرستقراطي ، وأقامت حكم لويس فليب البرجوازي ، وكان لذلك صدى مباشر في بريطانيا ، ففي خارج البرلمان

---

(١) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٢ .

(٢)الجبيلي.المصدر السابق٠ص٤٢ ٠

(٣) جون برايس ، نقابات العمال البريطانية ، القاهرة (ب ت) ، ص٦ .

(٤) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

(٥) G . D . H Cole . Attempts At General Union 1818-1839. London, 1953, P. 34-35.

(٦) جون روسل (١٧٩٢–١٨٧٨) سياسي بريطاني ، الابن الثالث لدوق بيدفور Beadford ، دخل البرلمان عام ١٨٣١ وكان من الأحرار الأحرار الراديكاليين ولعب دوراً كبيراً في الإصلاح البرلماني في مجلس العموم منذ عام ١٨١٩ حتى عام ١٨٣٢ عندما كان حزب الأحرار في السلطة ، وأصبح في البرلمان سكرتيراً للورد كري Lord Grey . وفي عام ١٨٦٦ ترك رئاسة حزب الأحرار إلى اللورد كلادستون Cladstone .

Encyclopaedia Britannica,vol:16 ed. 15. U.S.A. 1995, P. 5201.

(٧) مبروك ، المصدر السابق ، ص١٦٦ .

اشتدت المطالبة بالإصلاح وزادت صخباً وتهديداً ، وفي داخل البرلمان أظهر بعض المحافظين[١] أمارات الخوف . هدد دوق ولنكتن[٢] (١٨٢٣-١٨٣٠) ، وتوعَّد ثم استقال من رئاسة الوزارة . وألف لورد كري Grey (١٨٣٠-١٨٣٤) وزارة حرة وقدم لائحة إصلاح برلماني إلى مجلس العموم ، وقد هزمت الأكثرية المحافظة تلك اللائحة في أوائل العام ١٨٣١ ، فحلَّ البرلمان وأُجريت انتخابات جديدة نال بها لورد كري أكثرية حرة في مجلس العموم ، ثم قدم لائحة ثانية للإصلاح إلى مجلس العموم ، ولكن أكثرية المحافظين في مجلس اللوردات هزمتها ، ثم رفض الملك وليم الرابع1v William (١٨٣٠-١٨٣٧) تعيين عدد كافٍ من اللوردات الأحرار لتغيير الأكثرية في مجلس اللوردات فاستقال كري ، وأخذ دوق ولنكتن على عاتقه مهمة تأليف وزارة محافظة ووعد بأنْ يمزق لائحة الإصلاح ويقمع مؤيديها ، فقام الراديكاليون وأصحاب المصانع بتنظيم المظاهرات في المدن الصناعية وأثاروا الجماهير ضد الحكومة[٣] . ففي العام ١٨٣١ تكوَّنَ (الاتحاد الوطني) للطبقات العاملة وخاض هذا الاتحاد معركة ضارية مطالباً بالتصويت العام ولكنه فشل بسرعة[٤] . في تلك الظروف المضطربة تخلى دوق ولنكتن عن محاولة تأليف وزارة معادية ، فقد كان المحافظون أقلية في مجلس العموم ولذلك عاد كراي والأحرار إلى السلطة في مايس في العام ١٨٣٢[٥] . ولم يتحقق الإصلاح إلا حينما هددت وزارة اللورد كراي اللوردات المحافظين ، الذين كانت لهم الأغلبية في مجلس العموم بمطالبة الملك وليم الرابع بخلق عدد من اللوردات الأحرار كافٍ لأن يجعل مجلس اللوردات يجيز قانون الإصلاح[٦] . ولكن لم تحدث تلك الضرورة لأن اللوردات المحافظين خضعوا ثم وقَّع عليها الملك في حزيران ١٨٣٢[٧].

بموجب قانون الإصلاح للعام ١٨٣٢ Reform Act 1832 حدث تغيران مهمان في نظام الانتخابات البرلمانية في بريطانيا . فقد جردت بعض المناطق الانتخابية في المدن التي نقل نفوسها عن ٢٠٠٠ من حق تمثيلها في مجلس العموم ، ويطلق عليها الدوائر الانتخابية البالية (Rotten) ، أما الدوائر التي يتراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠-٤٠٠٠ فقد جردت من أحد مقعديها في البرلمان . أعطى بعض المقاعد التي أخذت بهذه الطريقة إلى مناطق انتخابية ريفية ، وأعطى البعض الآخر إلى المدن الصناعية الكبيرة مثل مانشستر وبرمنكهام وشفيلد ويلدز ، وجعلت شروط التصويت موحدة ومبسطة في جميع مناطق الانتخاب الريفية والمدنية وهذا لا يعني التصويت العام ، وقد خفضت الشروط المالية قليلاً . إنّ أهم نقطة في هذه التغيرات الانتخابية هي أنها سجلت زوال الاحتكار السياسي الذي مارسته الأرستقراطية الزراعية والتجارية منذ عام ١٦٨٩ ، بقي نظام الحكم أرستقراطياً ولكن هذه الأرستقراطية لم تكن مقصورة على الأرستقراطية الزراعية وأقطاب التجارة بل صارت تضم

---

(١) بدأ استخدام كلمة Conservative في العقد الرابع من القرن التاسع عشر للتعبير عن الحزب السياسي الإنكليزي الذي عرف منذ أصوله في عهد شارل الثاني (١٦٦٠-١٦٨٥) باسم حزب التوري Tory . هربرت فشر ، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٨٧٩-١٩٥٠) ، ترجمة أجمد نجيب هاشم ووديع الضبع ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص١٥٧ .

(٢) من أشد المحافظين صرامة ، فشر ، المصدر نفسه ، ص١٥٥ .

(٣) هيز ، المصدر السابق ، ص١٢٦ .

(٤) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

(٥) هيز المصدر السابق ، ص١٢٦ .

(٦) فشر ، المصدر السابق ، ص١٤٩ .

(٧) هيز ، المصدر السابق ، ص١٢٧ .

أصحاب المصانع والطبقة الوسطى . بوجه عام فهذه التغيرات خدمت المصالح الزراعية وجعلت السياسة العامة أكثر تحرراً بصورة تدريجية[١].

لم يتحقق انتصار الطبقة الوسطى في عام ١٨٣٢ دون مساعدة غيرهم ، فقد تعاونت معهم طبقة العمال في كفاحهم من أجل قانون الإصلاح ، وتكونت اتحادات سياسية ضمت كلتا الطائفتين في جمعية واحدة ، وقد قدم العمال مساعدتهم طمعاً في أنْ يكون قانون الإصلاح كما يقول لبسن بمثابة (نقطة وثوب) إلى حقوقهم السياسية ، على أنّ ذلك لم يكن مقصود حزب الأحرار ، فقد صرَّح اللورد جون رسل الناطق بلسانهم أنّ كلاً من مؤيدي قانون الإصلاح ومعارضيه مصممان على السواء ألاّ يذهبا إلى أبعد من ذلك ، وأنْ يبذلا قصارى جهدهما في المحافظة على الدستور المعدل كما هو دون أن يمس ، وأدى هذا التصميم على اعتبار القانون إجراءً نهائياً لا جزئياً إلى تصدع الاتحاد بين الطبقة الوسطى والطبقة العاملة ، ورأت الطبقة العاملة أنّ قانون الإصلاح لم يزد على أنه نقل السلطه من طائفة مسيطرة إلى أخرى[٢] ، لأنَّ قانون الإصلاح أعطى حق الانتخاب لسكان المدن الذين يملكون أو يستأجرون بيوتاً إيجارها السنوي عشرة جنيهات وللمزارعين الذين يملكون أو يستأجرون قدراً خاصاً من الأطيان ، وأصبح بهذه الطريقة عدد كبير من التجار والصناع لهم الحق في الانتخاب ، بينما كان كل العمال في المدن والحقول تقريباً لا يزالون محرومين من هذا الحق[٣].

فقامت في العام ١٨٣٣ أول محاولة لتوحيد العمال المهرة وغير المهرة من خلال نقابة العمال الوطنية الموحدة الكبرى Grand National Consolitated Trades Union التي أسسها روبرت أوين R. Owen وهو من أوائل المحسنين الاشتراكيين . وبحلول العام ١٨٣٤ انضم إليها مليون عامل[٤] ، تعاهدوا على إعلان الإضراب من أجل تحديد ساعات العمل بثماني ساعات يومياً ، وحينما شعرت الحكومة بهذا الخطر فرضت ضغوطاً على أوين لحل النقابة مما أدى إلى حلها في العام١٨٣٤[٥] .

أبدت الطبقة العاملة في آذار عام ١٨٣٤ روح المقاومة العالية عندما اتهم سبعة[٦] من العمال العمال الزراعيين في تولبدل Tolpuddle بالتآمر لتنظيم نقابة[٧] ، وحكم عليهم بالنفي إلى أستراليا لمدة لمدة سبعة أعوام ، وقد أثار هذا الحكم الطبقة العاملة فتحركت مظاهرات من ٥٠ ألف شخص إلى دوننج ستريت مطالبة بإطلاق سراحهم تحت شعار الإفراج عن شهداء تولبدل Tolpuddle Martyrs وأفرج عنهم ، وأصبح شهداء تولبدل بعد ذلك رمزاً للحركة النقابية وتمجد أسماؤهم في كل لقاء نقابي حتى اليوم[٨].

---

(١) هيز ، المصدر السابق ، ص١٢٧ .

(٢) لبسون ، المصدر السابق ، ص٦١٧ .

(٣) نافع ، المصدر السابق ، ص١٦٧ .

(٤) WWW, Opcit.

(٥) Ibid; الجبيلي، المصدر السابق،ص٤٤

(٦) هناك مصدر يشير إلى أنّ عددهم ستة ، بير لاركم ، النقابات البريطانية ، مصر (ب ت) ، ص١٦ .

(٧) كان قد صدر قانون في العام ١٧٩٧ ، ولم يكن يخطر على البال إذ لم يكن معمولاً به ، وهو قانون يقضي بعقوبة مَن يتعهد باحترام قسم غير مشروع ، وهي يمين الولاء للنقابة التي كان الأعضاء يقسمونها في مبدأ تكوين أي نقابة ، لاركم ، المصدر نفسه ، ص١٥-١٦ .

(٨) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٤ ؛ WWW Ask Com .

ولكن هزيمة نقابة العمال الوطنية الموحدة الكبرى التي لم تعش عاماً واحداً وفشلها وما حدث لشهداء تولبدل لم تقتل الروح الوطنية عند العمال ، ومن خيبة الأمل هذه انبثقت الحركة الجارتية Chartist Movement التي تحدث بها الطبقة العاملة لأول مرة السلطة السياسية .

الحركة الجارتية : ***Chartist Movement*** (١٨٣٨-١٨٤٨)

يذكر التاريخ البريطاني في تلك المدة مولد حركة جديدة ثم موتها هي الحركة الجارتية أو المطالبون بالميثاق[١] ، وقد لعب وليم لوفييت William Lovett[٢] (١٨٠٠-١٨٧٧) دوراً كبيراً في صياغة مسودة

مشروع الحركة في ميثاق الشعب Peoples Charter عام ١٨٣٨[٣].

أعلنت الحركة برنامجها لتحقيق إصلاح ديمقراطي يحقق ما فشل قانون الإصلاح للعام ١٨٣٢ من تحقيقه[٤] ، فقد اكتشف عمال المدن أنّ الإصلاح لم يزد في أجورهم ولم يخفض من ساعات عملهم بصورة ملموسة ، ولم يضمن لهم العمل لذلك اعتقدوا أنه يمكن الحصول على هذه المكاسب إذا توسع الإصلاح توسعاً جذرياً ، وإذا صار للجماهير والطبقات كلمة مسموعة في البرلمان . لذا طالب جماعةٌ من العمال يؤيدهم راديكاليو الطبقة الوسطى بتحقيق ميثاق شعبي Peoples Charter يضمن لهم[٥] حق الاقتراع العام ، والانتخابات البرلمانية السنوية ، وحق الاقتراع السري ، وتحديد مرتبات أعضاء البرلمان ، وتحقيق المساواة بين المناطق الانتخابية ، وإلغاء أحقية امتلاك أعضاء البرلمان للأراضي[٦] ، وأهمها جميعاً حق الانتخاب للرجال ، إذ أكد كتاب حركة الميثاق أنه من بين ستة ملايين من الذكور تزيد أعمارهم على إحدى وعشرين سنة ، لا يزيد عدد الناخبين على ٨٠٠.٠٠٠ شخص يشترك منهم بالفعل ١٥١.٠٠٠ ناخب في انتخاب أغلبية أعضاء البرلمان ، وقالوا : هل يصلح لتمثيل مصالح العمال ملاك الأراضي (الذين تحدوهم مصلحتهم إلى رفع الإيجارات بمقتضى قوانين خاصة غير عادلة أو رجال الصناعة والرأسماليون ، الذين يستطيعون باحتكارهم المطلق لقوى الخشب والحديد والبخار مجتمعة ، أن يجلبوا الفاقة والعوز إلى ألوف العمال ، ويرون من مصلحتهم أنْ يرغموا العامل على تقاضي أدنى حد من الأجور .

على هذا الأساس بنى رجال الميثاق مطالبتهم بالمساواة في الحقوق السياسية حتى يتسنى لهم كما قالوا : (أنْ يرسلوا نوابَهم من بين مَن يعيشون بعملهم إلى مجلس العموم ، ليشتركوا مع الفئات

---

(١) لاركم ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٢) ولد في كورونوول Cornwall عام ١٨٠٠ ، وهاجر إلى لندن في العام ١٨٢١ ، حيث عمل نجاراً للموبيليا (الأثاث) بعد أنْ كان عضواً أصبح رئيساً في جمعية نجاري الموبيليا ، وكان عضواً في اتحاد النجارة المشتركة الوطنية العظمى ، اعتقل وحوكم وأُدينَ بتهمة إثارة الشغب في العام ١٨٣٢ ، تلقى مساعدة من رابطة عمال لندن في عام ١٨٣٦ ، افتتح معرضاً لبيع الكتب ونشر كتاب الجارتية Chartism توفي عام ١٨٧٧، WWW, Op. Cit.

(٣) Herbert. L. peacock, A History of Modern Britin 1815 to 1955. London 1976. P. 69.

(٤) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٥) هيز ، المصدر السابق ، ص١٢٧-١٢٨ .

(٦) ألان بالمر ، موسوعة التاريخ الحديث ١٧٨٩-١٩٤٥ ، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، ج١ ، بغداد ، ١٩٩٢ ، ص١٧٨ .

الأخرى في المداولات وإصدار القرارات ، حتى لا تهدر مصالح الطبقة العاملة التي هي دعامة الصرح الاجتماعي)[١].

لقد وجدت هذه الحركة في ظروف مدٍّ ثوري بين الجماهير العمالية الكادحة ، ساعد على ارتفاع مدة الأزمة الاقتصادية التي طحنت بريطانيا من العام ١٨٣٥ حتى العام ١٨٤٢ ، وأزرت حركة الميثاق البرجوازية الصغيرة التي كانت لا تزال محرومةً من حقوقها السياسية إلى حد كبير ، عقدت الاجتماعات الواسعة ودعت الحركة إلى جمع ملايين التوقيعات على عريضة تقدم إلى المجلس النيابي بالمطالب الديمقراطية . لقد نالت هذه المطالب آلاف الأنصار في أوائل حكم الملكة فكتوريا[٢] Victoria Queen (١٨٣٧-١٩٠١) .

وتأسست في كل المدن الصناعية نوادٍ تضم هؤلاء الأنصار ، ثم تكونت جمعية عامة غرضها توحيد هذه النوادي وعقدت اجتماعات كثيرة في جميع أنحاء المملكة ، ثم تحول هذا الميثاق (الكارتر) إلى عريضة أمضى عليها ما يزيد على مليون شخص . وفي العام ١٨٣٩ قدمت هذه العريضة إلى البرلمان ولكنها رفضت بأغلبية الأصوات ، فبدأ العمال يحقدون على أعضاء البرلمان الذين اتخذوهم سلماً للوصول إلى البرلمان ؛ ولما يئسوا من الوصول إلى الإصلاح المنشود بطريقة سليمة ، صمم زعماؤهم على استعمال العنف والثورة لنيل مطالبهم ، فعمت الاضطرابات جميعَ البلاد ، واستعدت الحكومة لقمع كل حركة بالشدة ، خصوصاً وقد وصل عنف الثوار إلى أنْ نادوا بتنفيذ الميثاق (الكارتر) أو الجمهورية[٣].

وإذ أنزل نمو هذه الحركة الرعب في قلوب الرأسماليين الكبار وملاك الأرض ، فقد شنوا حرباً ضارية ضدها ، وإلى جانب هذه الحرب المضادة نشبت خلافات داخلية بين قادة الحركة الميثاقية ، لقد تمكن (الميثاق) من توحيد كل القوى الديمقراطية ، لكن هذا التوحيد كان يخفي خلافاً جذرياً سريعاً ما ظهر فقاده العمال ، فكانوا يطالبون بضرورة إلغاء قانون الفقر (تحقيق يوم عمل ذي ثمان ساعات) ومطالب عديدة أخرى ، عارضتها عناصر البرجوازية الصغيرة ، وكان هناك خلاف بين الأوينيين وبين قادة النقابيين حول مستقبل الحركة ، فكان الأوينيون يرون الحركة تهدف إلى إقامة النظام التعاوني ، بينما رأى الآخرون أنّ هدف الحركة يجب ألاّ يتعدى النضال من أجل إحداث تحسينات في ظروف معيشة العمال في ظل الرأسمالية[٤].

وقد انقسمت كلمة رجال الميثاق بشأن الوسائل كما انقسمت بشأن الأهداف ، فكان قسم يسعى إلى انتهاج طريق الدعوة السلمية الدستورية ، في حين راح قسم آخر يتحدث عن الثورة المسلحة ،

---

(١) لبسون ، المصدر السابق ، ص٦١٨ .

(٢) يعد عهدها أطول حكم في تاريخ المملكة البريطانية لذا سمي بالعصر الفكتوري Victorian Age . ولكون الملك وليم الرابع (١٨٣٠-١٨٣٧) عم فكتوريا لم يكن لديه أولاد يرثونه في العرش أصبحت الوريثة الشرعية للتاج وبموته في حزيران ١٨٣٧ نصبت ملكة وعمرها ثمانية عشر عاماً .

Walter. L, Arnstein (Victoria Queen) Microsoft Encartar Encyclopedia 2000. 1993 Microsoft Corporation, All rights Reseved.

(٣) نافع ، المصدر السابق ، ص١٦٨-١٦٩ .

(٤) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٥ .

وهو المسؤول عن الثورات الخطيرة في ويلز والشمال[١] ، حيث اندلعت اضطرابات عنيفة في مدينتي برمنغهام Birmingham ونيوبورت Newport ، إذ قتل ٢٤ من أعضاء الحركة الجارتية خلال الإضرابات العامة التي حدثت في ٣ تشرين الأول من العام ١٨٣٩[٢] . ومما ساعد على انقسام الكلمة ظهور الخلافات الشخصية وعجز الزعماء عن تناسي آرائهم وأطماعهم الشخصية في سبيل القضية المشتركة[٣].

وإلى جانب اختلاف الأهداف والوسائل والزعماء ظهر انقسام خطير في صفوف العمال أنفسهم ، إذ ظهر أنّ عمال الجنوب والشمال في مجال الصناعة يكونون عالمين مختلفين ، فعمال الجنوب وبخاصة في لندن احتفظوا بتقاليد الحِرَف القديمة فكانوا صنّاعاً مهرة ينتظمون في سلك نقابات قوية تقتصر العضوية فيها على أهل الحرفة ، ونجحوا في مقاومة الانحطاط الاجتماعي ، وكان مستواهم العالي في الحياة وخبرتهم في الدعوة المنظمة والفرص الفريدة المفتوحة أمامهم للتعليم والمناقشة ، مما أضفى عليها طابعاً رفيعاً جعل منهم طبقة أرستقراطية من العمال ، أما في الشمال فقد برز إلى حيز الوجود جمهور كبير من السكان بسبب الثورة الصناعية الجديدة ، وكانت أخلاقهم (الوحشية) الثائرة نتيجةً حتمية للعوامل الشريرة التي كونتها ، إذ كان المعدنون في الشمال والنساجون الجائعون غير متعلمين ، ناقمين بسبب ساعات العمل ، يعيشون في أحوال غير صحية مفزعة ، ويؤرقهم الشعور بالظلم الناجم عن طغيان النظام الاقتصادي ، فكانوا بمثابة كتلة ملتهبة سريعة الاشتعال لا تحتاج إلا إلى شرارة من البلاغة الحماسية فتشتعل فيها النار ، هؤلاء القوم الذين كانوا يصنعون الرماح ، ويتدربون عسكرياً ، ويحضرون مواكب الشعلة ، وينتظرون الساعة التي يدعون فيها إلى حمل السلاح ، كان هذا هو حال بريطانيا في العقود الأولى من القرن التاسع عشر[٤].

ولما تعذر إصلاح الأحوال في المصانع ازداد اعتقال العمال ، أن الطبقة الوسطى هي عدوهم ، قال روبرت أوين : ((إذا سارت الأمور على هذا النحو ستمضي قرون قبل أن تتخذ إجراءات حاسمة لتحسين حال الطبقة المنتجة)) . وشكا أنصار الميثاق مر الشكوى من إهمال البرلمان قائلين : ((بينما عرضت عليكم مظالمنا الاجتماعية مراراً وتكراراً ، كنتم أنتم ، يا مَن يحتم عليكم الواجب أن تتلمسوا لها علاجاً ، تعرضون عن البحث فيه ، وتعكفون على مصالحكم ولذاتكم ، لقد أبلغكم مندوبكم أنّ آلاف الأطفال يرزحون في أغلال الرق والجهالة في مناجمكم ومصانعكم ، بينما آباؤهم التعساء يفتقرون إلى العمل ويحتاجون إلى القوت)) .

وكتب كارليل[٥] في العام ١٨٣٩ في هذا المعنى (اقرأ المناقشات التي سجلتها مضبطة البرلمان ، أو الصحف اليومية إذا لم يكن لديك ما يشغلك ! تجد فيها المسألة القديمة الكبرى : هل يتولى (أ) المنصب أو يتولاه (ب) ؟ ومسألة كندا ومسألة امتلاك أيرلندا ، ومسألة جزر الهند الغربية ، ومسألة غرفة نوم الملكة (فكتوريا) ، وقوانين الصيد ، وقوانين الربا ، والعربات التي تجرها الكلاب

---

(١) لبسن ، المصدر السابق ، ص٦١٩ .

(٢) بالمر ، المصدر السابق ، ص١٧٨ .

(٣) لبسن ، المصدر السابق ، ص٦١٩ .

(٤) لبسن ، المصدر السابق ، ص٦١٩-٦٢٠ .

(٥) كان توماس كارليل (١٧٩٥-١٨٨١) من كبار أدباء عصره ، فنعى على الحكومة عدم مبالاتها بالمساوئ الاجتماعية التي انتشرت في القرن التاسع عشر ، وذلك من خلال الصحف والكتب التي كان ينشرها . لبسن ، المصدر السابق ، ص٦٢١ .

، كل ما دبَّ وهب من المسائل والموضوعات ما عدا هذه : مسألة الأوضاع الاجتماعية في إنكلترا ، التي هي أم المسائل بأسرها)[١].

وبينما كان كارليل يكتب في العام ١٨٣٩ ويشهر بالسلطة التشريعية لعدم مبالاتها بالمسائل الاجتماعية وبث روح جديدة في الحركة الميثاقية .

عادت الحركة الميثاقية في العام ١٨٤٠ إلى الظهور وتكون حزب سياسي باسم الجمعية الوطنية وقد ضم هذا الحزب أكثر من ٤٠ ألف عضو ، وقدم عريضة إلى البرلمان ، جمع عليها أكثر من ثلاثة ملايين توقيع ، ولكن هذا الحزب فشل بسرعة بعد أنْ نظم إضراباً عاماً فاشلاً في منطقة مانجستر[٢] ، وقد تعرضت الحركة إلى انشقاق كبير خلال الفترة ما بين ١٨٤٠-١٨٤٢ ، إلا أنّ التماساً ثانياً عرض في شهر أيار في العام ١٨٤٢ ، وقد رفض مثل الالتماس الأول[٣].

وعكست ثورة ١٨٤٨ في فرنسا التي تكونت على أثرها الجمهورية الثانية في رفع مد الحركة الثورية في بريطانيا ، فزاد الغلاء وقلة الأعمال وكساد الحال فيها في ذلك الوقت ، في حنق الناس وسخطهم فعادت الحركة الميثاقية إلى الظهور عام ١٨٤٨[٤] . فقد أعدت مظاهرة كبرى تأييداً للملتمس القومي الثالث الذي قيل إنّ عدد مَن وقع عليه هو ستة ملايين ، منهم ١٧٠.٠٠٠ من كبار رجال الدولة من بينهم غلادستون Gladstone[٥]، ولكن المطر هطل فتفرق المتظاهرون في هدوء ، وأرسلت العريضة الهائلة إلى وستمنسر على ثلاث عربات وسلمت إلى البرلمان ، وسط الهتاف والضحك ودل فحص التوقيعات على أنّ عدد الموقعين أقل من مليونين من بينهم أسماء مثل (أول أبريل الملكة فكتوريا ، والأمير ألبرت والسير روبرت بيل ، ودوق ولنكتون الذي تكرر توقيعه في العريضة سبع عشرة مرة[٦] . وهكذا تلاشت الحركة ، وكانت هذه نهاية لا تليق بحركة عظيمة ألهمت ألهمت طائفة من كبار المفكرين بين الطبقة العاملة وخارجها .

إنّ فشل الحركة الميثاقية يرجع إلى عدم نضج حركة الطبقة العاملة وعدم وضوح طريقة الصراع أمام قادتها ، كما أنّ المجموعات المكونة لحركة الميثاقيين لم تكن متماسكة ولا متفقة في المصالح (محافظين ، راديكاليين ، مصلحين إنجيليين ، اشتراكيين حالمين ، عمال وفلاحين) وإلى جانب عدم التجانس هذا فقد كانت الحركة منظمة تنظيماً سيئاً كان سببه أنّ زعماء الحركة لم يكن لديهم أي اتفاق على الأهداف التي يدعون الناس للنضال من أجلها ، ولم يكن لديهم موقف موحد حول أساليب الصراع ووسائله لتحقيق أهدافهم ، وهكذا كانت الحركة تفتقد وجود حزب سياسي قوي يقودها . وسيادة العناصر البرجوازية الصغيرة والقادة النقابيين الانتهازيين وخاصة قادة نقابات العمال

---

(١) لبسن ، المصدر السابق ، المصدر والصفحة أنفسهما .

(٢) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٦ .

(٣) بالمر ، المصدر السابق ، ص١٧٨ .

(٤) Cecil Algernon, Queen Victoria and Her Prime Ministers. London, 1953. P. 261.

(٥) هو ولسم غلادستون (١٨٠٩-١٨٩٨) ابن تاجر من مدينة ليفربول ، درس في جامعة أكسفورد وأصبح عضواً في البرلمان عام ١٨٣٣ ١٨٣٣ ممثلاً عن حزب المحافظين في مجلس العموم عن مدينة نيو وارك احتل منصب وزير المالية ١٨٥٢-١٨٥٥ ، ثم للفترة ما بين ١٨٥٨-١٨٦٦ ، وفي العام ١٨٦٦ أصبح زعيم الأحرار ، وفي العام ١٨٦٨ أصبح رئيساً لوزراء بريطانيا ، وتقلد هذا المنصب أربع مرات ، وعرف كلادستون بإرسائه قواعد أواخر العهد الفيكتوري على قوام حزب الأحرار ، وعرف غلادستون بلباقته في فن الخطابة وتعاطفه الكبير مع المضطهدين من أفراد الشعب وتنافسه السياسي مع دزابيلي . بالمر ، المصدر السابق ، ص٣٣٢-٣٣٤ .

(٦) لبسن ، المصدر السابق ، ص٦١٩ .

المهرة والذين يركزون اهتمامهم فقط على النضال من أجل تحسين ظروف العمل ورفع الأجور ، والقضايا العامة الاجتماعية والسياسية عندهم لا يجب الاهتمام بها إلا في حدود القضايا اليومية[١].

وعلى الرغم من فشل الحركة الميثاقية إلا أنه يمكن تقويمها من خلال حصولها على تأييد قطاعات عديدة من العمال ، فالحركة الميثاقية تقدر من جانب كل الثوريين التقدير السليم ، باعتبارها أول حزب سياسي للطبقة العاملة سجل وجوده في تاريخ الحركة العمالية ، ومطالب الميثاقيين الستة وإنْ فشلت في تحقيقها في البداية إلا أنّ تلك المبادئ انتصرت بعد أجيال تحت ضغط الحركة العمالية والشعبية .

الدعوة المبكرة إلى الوحدة الدولية :

لم تعرف الحركة العمالية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحدة دولية وإن كانت الطبقة العاملة في مختلف البلاد الرأسمالية تحلم بهذه الوحدة ، وقد رأت الرأسمالية عدواً واحداً يواجهها على النطاق الدولي وعبر عن هذا الحلم وهذه الرغبة ما جاء في نداءٍ وجَّهه عمال مدينة نانت في العام ١٨٣٤ إلى زملائهم في لندن ، وجاء في هذا النداء : (أيها الإخوان والأصدقاء لا تدعوا الأنهار والبحار التي تشكل الحدود بين دولة وأخرى تقف حجر عثرة في سبيل اتحادنا ، دعونا نقوي الصلات بين جميع المراكز الصناعية في العالم) ، ولكن الدعوة إلى الوحدة الدولية أخذت شكلها الفعلي على أيدي ماركس وإنجلز (١٨١٨-١٨٨٣) Engels , Marx (١٨٢٠-١٨٩٥) ففي العام ١٨٤٦ أقام ماركس وإنجلز في بروكسل لجنة مراسلة لتعبئة الممثلين التقدميين لحركات الطبقة العاملة والحركات الاشتراكية والعمل على توحيدهم فكرياً وتنظيمياً محضرين بذلك لإنشاء تنظيم دولي للبروليتاريا ، واتخذا إجراءات لإنشاء لجان مراسلة في لندن وباريس وألمانيا ، وسافر إنجلز إلى باريس لتحقيق هذه المهمة.

وفي العام ١٨٤٨ اشتركا في الجمعية الديمقراطية التي أخذت توثق علاقاتها بالتنظيمات المماثلة في البلدان الأخرى ، وأصبح كارل ماركس نائب رئيسها ، وفي المؤتمر الثاني للرابطة الشيوعية في لندن كلف ماركس وإنجلز بكتاب برنامج للرابطة في شكل بيان وقدما هذا البرنامج في العام ١٨٤٨ ، وهو البيان الشيوعي الذي افتتح شعاره (يا عمال العالم اتحدوا) . إنّ كل ذلك النضال من الوحدة الدولية لم يكن إلا مجرد نداءات وخطوات ابتدائية على الطريق ، فأول وحدة دولية لم تتحقق إلا في ستينات القرن التاسع عشر٠ [٢].

المبحث الثاني: تطور الحركة العمالية والنقابية .. من منتصف القرن التاسع عشر حتى نهايته

أخذت الحركة العمالية منذ منتصف القرن التاسع عشر تستعيد وجودها ، فمنذ العام ١٨٥٠ أعيد تكوين النقابات وتكونت النقابات الأُولى الجديدة على أساس التشكيل الحرفي إذ تميزت هذه النقابات بروح محافظة شديدة ، حيث كانت تقتصر على تنظيم مراتب وأقسام محدودة وهي المؤهلة تأهيلاً خاصاً[٣] ، واستبعد من التنظيم المراتب والأقسام الدنيا العريضة للعمل غير الماهر وتمسكت هذه النقابات ذات الطابع الحرفي والمهني الضيق بالامتيازات الخاصة لأعضائها ، وكان الطابع المميز لهذه النقابات أنها تتصرف باعتبارها جمعيات غوث ومعونة ، وفي مقدمة هذه النقابات

(١) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٤٦-٤٧ .

(٢) الجبيلي ، ص٦٢ ، محمد قاسم وحسن حسني ، تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص١٧٧.

(٣) Bullock, OP, Cit, P.257.

(جمعية المهندسين المندمجة) المؤسسة في العام ١٨٥١ التي تكونت من اندماج عدد من النقابات الصغيرة ، وتكوَّنَ على نمطها حينذاك نقابات النجّارين وعمال صناعة الحديد وعمال المناجم[١].

في الفترة ما بين ١٨٤٣-١٨٦٨ وفي ازدهار الصناعة البريطانية وتحول الاقتصاد البريطاني الرأسمالي إلى مرحلة الاحتكار ، وبرغم التوسعات الاستعمارية على حساب الشعوب في أفريقيا وآسيا تخلت الرأسمالية الإنكليزية عن جزء ضئيل من أرباحها (من فتات موائدها) ، ومنحته للقطاعات العليا من الطبقة العاملة الإنكليزية ، وهكذا كوَّن قطاع العمال فئة جديدة متميزة هي أرستقراطية الطبقة العاملة وتمكنت هذه الفئة من تولي قيادة الحركة النقابية والانحراف بها إلى الوفاق الطبقي مع الرأسمالية إلى مساندة الحروب الاستعمارية الوحشية التي شنتها الإمبراطورية في هذه الفترة لتغزو وتنهب القارات المختلفة .

في تلك المدة اعتبرت القيادات اليمينية الرأسمالية عادلة ومنصفة وديست كل التقاليد الثورية العمالية الإنكليزية في مطلع القرن التاسع عشر[٢] ، هذه التقاليد التي خطتها الحركة الميثاقية وإضرابات العمال العديدة التي أشرنا إليها في المبحث الأول برغم ذلك ازدادت رغبة العمال في الإصلاح الديمقراطي في البرلمان .

الإصلاح البرلماني لعام ١٨٦٧ :

زادت الرغبة لدى العمال في الاشتراك في الحكم حتى يمكن إلغاء القيود المفروضة على نقابات العمال وإصلاح أحوالهم اجتماعياً ، فأخذوا يعقدون الاجتماعات والمظاهرات يعاونهم في ذلك الأحرار الذين تطورت آراؤهم منذ العام ١٨٣٢ حتى اعتنقوا الأنظمة الديمقراطية ، كما عززهم المحافظون الذين تخلوا عن معارضة مطالب الإصلاح لأغراض حزبية . وإذا كانت الظروف كلها قد تهيأت لمصلحة العمال فقد دلت التجارب أيضاً على أنّ حصر الانتخاب في طبقة معينة يدعو إلى استمرار أساليب الرشوة التي جعلت الانتخابات في بريطانيا ضرباً من الهزء والسخرية ، هذا إلى أنّ السكان ازدادوا بين العام ١٨٢٨ والعام ١٨٦٧ نحو ٤٠% ، وهذه الزيادة لم تراعَ في نظام الانتخاب القائم ، فبينما كانت بلدة تونتس مثلاً تتمتع بعضوين عن سكان لا يبلغون أربعة آلاف كانت ليفربول Liverpool بسكانها الذين كانوا يبلغون ٤٠٠٠٠ نسمة تنتخب مثل هذا العدد[٣].

لذلك اقترح كلادستون في العام ١٨٦٦ توسيع حق التصويت ، ولم يكن اقتراحه راديكالياً لدرجة كافية بحيث يرضى الجناح اليساري من حزب الأحرار ، ولكنه كان في نظر الجناح اليميني راديكالياً جداً ، ولذلك اتفق هذا الجناح مع المحافظين لرفض الاقتراح وإسقاط الوزارة في العام ١٨٦٦ ، أثار اقتراح كلادستون المعتدل جداً في الإصلاح اهتماماً قليلاً عند الشعب ولكنه عندما رفضه البرلمان وتألفت وزارة محافظة أثار الدعاة الراديكاليون الشعب وقالوا : إنّ تأليف الوزارة المحافظة معناه إعلان الحرب ضد الديمقراطية والطبقات العاملة . وقد تعاون النقابيون وألَّفوا عصبة الإصلاح الوطني الديمقراطية National Reform League ، ولما حاولت الوزارة منع العصبة من عقد اجتماع جماهيري كبير في لندن وذلك بإغلاق بوابات حديقة هايد بارك قامت جماهير كبيرة بكسر الأقفال ،

(١) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٧٨-٧٩ .

(٣) محمد قاسم ، المصدر السابق ، ص١١٣ .

ولما حشي لورد ديربي رئيس الوزارة المحافظة العاقبة خول دزريلي (الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس العموم) تقديم لائحة إصلاح إلى مجلس العموم ، وكانت هذه اللائحة عند تقديمها في بداية الأمر أكثر اعتدالاً من لائحة كلادستون ولكن دزريلي وافق على التعديلات الراديكالية التي قدمها خصومه لإحراجه ، وبذلك صار دزريلي راعي قانون الإصلاح للعام ١٨٦٧ Reform Act الديمقراطي ، لم يكن القانون ديمقراطياً تماماً فقد بقي التصويت مقيداً بالشروط المالية ولكنه كان خطوة مهمة نحو الديمقراطية[١] ، وقد وصف اللورد ديربي قانون الإصلاح بأنه (قفزة في الظلام)[٢].

فقد تضاعف عدد المنتخبين تقريباً وأعطى التصويت للطبقات العاملة في المدن الصناعية . وهكذا رأينا أرستقراطية في أشخاصها وديمقراطية في أساليبها وسياستها[٣] ، فاستطاعت النقابات البريطانية أن تعقد أول مؤتمر للنقابات ، وأن تحصل في العامين ١٨٧١ و ١٨٧٥ على أنها تنظيمات مشروعة وعلى حق العمال في الإضراب

أول مؤتمر للنقابات وقانونا ١٨٧١ و ١٨٧٥ :

في هذه الفترة خطت النقابات الحرفية خطوات لتحقيق الوحدة الطبقية بتشكيلها لمجالس النقابات ومؤتمر النقابات ، ففي العام ١٨٦٨ عقد أول مؤتمر للنقابات البريطانية في مانشستر Manchester وكان يؤلف ١١٨ ألف عضو وانتخب هذا المؤتمر أول إداريين من النقابات للعمل البرلماني ، ومنذ العام ١٨٦٨ أصبح مؤتمر النقابات يعقد كل عام[٤].

استجيب أحد المطالب الشعبية الكبيرة بتشريع قانون التربية للعام ١٨٧٠ Education Act وحتى عام ١٨٧٠ لم تكن هناك في بريطانيا مدارس رسمية وكان نحو نصف أطفال الشعب لا يذهبون إلى المدارس بصورة منتظمة ، وقد نصَّ القانون الأول على زيادة المساعدات الرسمية للمدارس الخاصة الأهلية ، وعلى تأسيس مدارس متممة من المدارس الرسمية ويصرف عليها بصورة كاملة من الضرائب العامة وتديرها مجالس تربية رسمية ولا يدرس فيها موضوع الدين . في ظل مدارس المجالس هذه ومدارس الكنيسة التي استمرت بالعمل في ظل المتطلبات الجديدة التي توجب ذهاب كل طفل إلى المدرسة بعض الوقت ، انخفضت نسبة الأمية في بريطانيا سريعاً من ٢٤% عام ١٨٧١ إلى ١% في ١٩١٠[٥].

وفي العام ١٨٧١ حصلت النقابات البريطانية على حق تسجيلها تنظيمات مشروعة وحماية أموال النقابات وبعد تحقيق هذه المكاسب ازدادت القدرة التنظيمية للحركة وأصبح مؤتمر النقابات يضم في العام ١٨٧٤ ما يقرب من ١.٢٠٠.٠٠٠ مليون عضو[٦].

واستجابت الدولة أيضاً إلى مطلب شعبي آخر في العام ١٨٧٢ بإلغاء التصويت العلني في الانتخابات البرلمانية والبلدية ، وأحلت محله التصويت السري المسمى بالتصويت السري الأسترالي Australian Ball Of نسبة إلى أصله . فهذا القانون أكمل قانون الإصلاح للعام ١٨٦٧ بصورة محكمة

(١) هيز ، المصدر السابق ، ص١٥٩-١٦٠ .
(٢) لبسن ، المصدر السابق ، ص٦١٧-٦١٨ .
(٣) هيز ، المصدر السابق ، ص١٦٠ .
(٤) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٧٩ .
(٥) هيز ، المصدر السابق ، ص٢٩٧ .
(٦) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٧٩ .

إذ مكن عمال المدن من التصويت كما يشاؤون دون اطلاع أو احتمال انتقام مستخدميهم منهم وكان خطوة ديمقراطية إلى الأمام[١] .

وفي العام ١٨٧٥ نجحت الحركة النقابية في كسب قانون جديد ألغى عقوبة الإضراب واعتبر حق العمال في الإضراب عنصراً حيوياً في مبدأ المساومة الجماعية ، كما تقرر عدم النظر إلى أي عمل تقوم به النقابات بقصد تطورها على أنه مؤامرة ، إلا إذا قام به فرد واحد فيعتبر في هذه الحالة جريمة . وهكذا أوقفت هذه القراءات أي اضطهاد للنقابات على أساس الاتهامات السابقة التي كان القانون ينص عليها في الخمسين سنة الماضية[٢] ، وهذا فسح المجال للحركة النقابية لممارسة نشاطها السياسي وتحقيق مكاسبها في البرلمان .

الحركة النقابية والنشاط السياسي :

في البداية كانت الحركة النقابية البريطانية تعتمد على حزب الأحرار لتحقيق مكاسبها السياسية في البرلمان ، وأصبح الأحرار يعتمدون على تأييد الزعماء النقابيين الكبار في الوصول إلى البرلمان والوزارة لكن سياسة الأحرار فقدت تأثيرها بسرعة ونمَت الاتجاهات لخلق حزب سياسي مستقل وتكوين هذا الحزب العمالي من أجل فصل الحركة النقابية والعمالية عن البرجوازية ، كان نضالاً شاقاً ومعقداً وسنتتبعه بالتعرف على الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي حتى نشأة حزب العمال .

في العام ١٨٨١ كون مجموعة من الراديكاليين والفوضويين والعناصر الديمقراطية الاتحاد الديمقراطي ، وأعلن الاتحاد الديمقراطي أنه يعمل من أجل تحقيق بعض الإصلاحات وتأميم الأرض ، وكانت الشخصية القائدة لهذا الاتجاه هنري مايرز هايندمان[٣]. وفي العام ١٨٨٤ وبتأثير هايندمان تبنى الاتحاد برنامجاً اشتراكياً وأصبح اسم الاتحاد الاتحادَ الديمقراطي الاشتراكي لبث المبادئ الماركسية[٤] وأصبح من شخصياته اليانور ماركس[٥] وزوجها إدوارد إيفلنج وتوماس مان[٦].

كان أعضاء الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي يسيرون في الشوارع في مواكب ينشدون الأناشيد الثورية ويلوحون بالعلم الأحمر ويعقدون الاجتماعات في النقابات ويتلون فيها الخطب العنيفة ، واتخذ الاتحاد موقفاً يسارياً انعزالياً من النقابات ، وكان الاتحاد يحتقر النقابات والعمل النقابي ، واعتبر أنّ النقابات العمالية ليس من هدف إلا النضال والعمل على تحسين ظروف الحياة المعيشية للعمال ، بينما مهمة تغيير المجتمع وبالثورة ليس من مهمتها . وفي العام ١٨٨٤ تعرض الاتحاد إلى الانقسام

---

(١) هيز ، المصدر السابق ، ص٢٩٧ .

(٢) لاركم ، المصدر السابق ، ص١٩ .

(٣) هنري مايرز هايندمان (١٨٤٢-١٨٢١) اشتراكي إصلاحي إنكليزي محامي وناشر من قادة ومؤسسي الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي ، وكان محرر جريدته (العدالة) ، أيد الحرب العالمية الأولى وأصبح شوفينياً خلال الحرب ، ومن أشهر مؤلفاته (إنكلترا للجميع) ، الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨١ .

(٤) لاركم ، المصدر السابق ، ص٢١ .

(٥) اليانور إيفلنج (١٨٥٥-١٨٩٨) أصغر بنات كارل ماركس وكان لها دور بارز في الحركة العمالية البريطانية الدولية وزوجة إدوارد إيفلنج الكاتب الإنكليزي وعضو الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي وبعد ذلك الجمعية الاشتراكية ، وقد اختيرت اليانور سكرتيرة للجنة إضراب عمال السفن المشهور عام ١٨٨٩ . الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٠ .

(٦) توماس مان (١٨٥٦-١٩٤١) شخصية بارزة من شخصيات الطبقة العاملة البريطانية ، أصبح عضواً في حزب العمال المستقل ومنذ عام ١٩٢٠ عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني ، قام بدور في تأسيس البروفينترن (الدولة الحمراء للنقابات) . الجبيلي ، المصدر نفسه ، ص٨٠ .

في صفوفه ، والاتحاد هذا رغم جموده وانعزاله فإنه أفاد الدعاية الاشتراكية ، ورغم أنه لم ينجح في دخول البرلمان فإنه قد دخل بعض المجالس البلدية ، وكان موقفه معادياً للمحافظين والأحرار وكان يهاجم سياسة القادة النقابيين المرتمين في أحضان الأحرار[١] مما دفع مثقفي الطبقة الوسطى لتأسيس حركة تهدف إلى تطبيق الاشتراكية في بريطانيا .

الجمعية الفابية : ***Fabian Society***[٢]

وهي حركة أغلبية أعضائها من مثقفي الطبقة الوسطى أسست في شهر كانون الثاني في العام ١٨٨٤ هدفت إلى نشر المبادئ الاشتراكية بين المثقفين كما هدفت إلى إيجاد وسيلة لتطبيق المبادئ الاشتراكية في بريطانيا ، ومن أوائل أعضاء هذه الحركة برناردشو[٣] وبياترس ويب[٤] ، وقد رفض أعضاء الجمعية الفابية مبادئ الماركسية الثورية[٥].

وهاجم الفابيون في إقدام وجرأة مذهبَ الحرية الاقتصادية والمبدأ العتيق الذي كانت تحبذه وزارات المالية القائل بترك المال يتكاثر في جيوب دافعي الضرائب وحضوا الحكومة على الإنفاق في سبيل ترقية المرافق العامة ، وأعلنوا للأمة أنّ العامل مستحق لحد أدنى من التعلم والصحة وأوقات الفراغ والأجور ، ولهذا فإنه بينما كان نجم كارل ماركس آخذاً في الأفول في بريطانيا أخذ المصلحون الفابيون ينادون ببشارة (التدرج الطبقي الحتمي) وطبعوا تشريعات البرلمان البريطاني الكثيرة في الإصلاح الاجتماعي بطابع أفكارهم وبحوثهم[٦].

ورغم أنّ الفابيين منذ وجودهم كانوا يدعون إلى قيام حزب عمالي ، فإن خطتهم كانت تتركز في إمكانية تحويل حزب الأحرار إلى حزب عمالي وكان بعض زعمائهم وخاصة بعد انقسام حزب الأحرار وخروج جزء كبير من المحافظين منه يرى أن خروج الرأسماليين القدامى من الحزب محتمل وسيؤدي ذلك إلى إمكانية إعادة تنظيمه ليضم حزباً خاصاً بالطبقة العاملة ، وكان البعض الآخر يرى أن التسرب إلى حزب الأحرار ليس إلا خطة مؤقتة وشيئاً فشيئاً بدأ الانفصام يتم بين الفابيين والأحرار ، فقد اتجهت الجمعية الفابية أكثر وأكثر إلى الدعوة لإقامة حزب عمالي مستقل ، وفي شباط من العام ١٨٩٢ قررت الجمعية الفابية ضرورة العمل على قيام حزب عمالي مستقل تموله النقابات العمالية ، وفي العام ١٨٩٣ و ١٨٩٤ وجهت الجمعية نداءاتها لتكوين مثل هذا الحزب[٧].

وهاجمت حزب الأحرار وكانت مقالة ويب وشو بعنوان (عودوا إلى خيامكم يا إسرائيل) هي بمثابة إعلان من قبل الفابين للتخلي عن سياسة التسرب داخل حزب الأحرار وتمويله ، ولقد دفع الجمعية الفابية إلى الاستمرار في هذا التحول القرار الذي اتخذه مؤتمر النقابات العمالية في العام

---

(١) المصدر نفسه ، ص٨٢ .

(٢) أخذت الجمعية الفابية اسمها من اسم القائد الروماني فابيوس ماكسيوس Fabius Maxius (القرن الثالث قبل الميلاد) الذي عرف بالمماطل أو المخادع ، إذ كان محور خططه أنه يرفض الدخول في معركة حاسمة ضد هانيبال .
Encyclopaedia, Op. Cit. P. 5220.

(٣) جورج برناردشو (١٨٥٦-١٩٥٠) الكاتب الإنكليزي المشهور وهو اشتراكي إصلاحي .

(٤) بياترس ويب (١٨٥٩-١٩٤٧) مؤرخ ومنظر للنقابية الإنكليزية ، وخلال الحرب الأولى كان شوفينياً ومتعصباً ، وبعد ثورة أكتوبر تعاطف ويب مع الاتحاد السوفيتي ، الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٢ .

(٥) بالمر ، المصدر السابق ، ص٢٨٣ .

(٦) فشر ، المصدر السابق ، ص٣٣٥ .

(٧) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٢ .

١٨٩٣ بالموافقة على إنشاء صندوق سياسي لمساعدة مرشحي العمال المستقلين ، والدعوة إلى قرار يؤيد الملكية الجماعية ، وإن كان مؤتمر النقابات تردد في تنفيذ قراره هذا ، فإن الفابيين قد ترددوا كذلك في موقفهم من الأحرار فعادوا إلى تأييدهم عندما تولى لورد روزيبيري الوزارة في العام ١٨٩٤ واتخذ بعض الخطوات الإصلاحية ، ولكن بعد هزيمة الأحرار في العام ١٨٩٥ تم الانفصال السياسي بين الأحرار والفابيين وأخذ الفابيون يدعون إلى أنّ التحالف مع النقابات هو الأساس لقيام أي حزب عمالي مستقل(١).

حزب العمال المستقل: ***Independent Labour Party***

وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت كل الظروف غير مهيأة لقيام حزب ثوري للطبقة العاملة ، لقد كانت على نقيض ذلك تسمح بقيام حزب يعتمد على النقابيين الإصلاحيين والمحافظين ، فالمد الاستعماري كان في أوَجِه ولم تحرز الاشتراكية أي نصر جديد على بريطانيا ، بل كانت تتراجع عن بعض مراكزها بينما كانت الروح الإصلاحية والمحافظة تسود وإن صيغت بكلمات اشتراكية .

وفي العام ١٨٩٢ وصل عضوان عماليان إلى البرلمان وارتفع عدد ممثلي العمال في انتخابات المجالس البلدية إلى ٢٠٠٠ وقد انعكس ذلك على الحركة النقابية التي وجدت أنه من الممكن القيام بدور سياسي يكون أكثر فعالية ، ففي مؤتمر النقابات المنعقد في كلاسكو في ١٨٩٢ دعا هاردي(٢) مندوبي النقابات إلى اجتماع لتكوين حزب عمالي مستقل وفي العام ١٨٩٣ عقد المؤتمر السياسي لحزب العمال المستقل ، وحضر ممثلون لثمانين حزباً من الأحزاب العمالية المستقلة (الصغيرة) وممثلون لفروع الحزب الأسكتلندي ويمثلون عدداً غير قليل من النقابات الصغيرة وبعض فروع الاتحاد الديمقراطي الاشتراكي ، والجمعية الفابية وبعض الجمعيات الاشتراكية وجماعة الدعوة إلى تحديد يوم عمل بثماني ساعات . وأعلن الحزب أنّ هدفه هو (الملكية الجماعية والإشراف على وسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل) ، وفي العام ١٨٩٥ طالبَ الحزب بكمنولث صناعي يقوم على أساس تأميم الأرض ورأس المال .

وكان للحزب نفوذ كبير في عمال المناجم وساندهم في إضرابهم في العام ١٨٩٨ ، ودخل هاردي البرلمان في ١٩٠٠ وطالب في البرلمان بيوم عمل ثماني ساعات ، واحتج على استخدام الحكومة للقوات العسكرية ضد إضرابات العمال في (١٨٩٣-١٨٩٤) وقد أحدث هاردي ضجة كبيرة في البرلمان الإنكليزي(٣).

وانتهت انتخابات ١٩٠٦ بانتصار العمال فانتخب ٢٩ من مرشحي لجنة التمثيل العمالي وإلى جانب هؤلاء انتخب ٢٤ من مرشحي عمال المناجم ومن القادة النقابيين المرتبطين بالأحرار . وغيرت لجنة التمثيل العمالي اسمها بعد هذا النصر إلى (حزب

---

(١) المصدر نفسه ، ص٨٣ .

(٢) جيمس كير هاردي (١٨٥٦-١٩١٥) من الساسة الإنكليز الإصلاحيين ومؤسس حزب اللعمال المستقل ، أصله عامل منجم أيرلندي ، نشأ فقيراً وعمل في المناجم وهو في العاشرة من عمره ، نظم عمال المناجم في لانكشير وإيرشير ، وكتب للصحف وأصدر صحيفة شهرية ثم تحولت إلى جريدة أسبوعية ودعت هذه الجريدة باسم حزب العمال المستقل إلى تأميم السكك الحديدية وتنظيم البنوك . الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٤ .

(٣) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٤ .

العمال) واتخذ النواب التسعة والعشرون مكانهم من مقاعد المعارضة معلنين بذلك استقلالهم وأقيم تحالف بين العمال والأحرار داخل المجلس استمر حتى ١٩١٤[١].

الاستنتاج

بدأت النقابات كما رأينا ، مجرد هيئات دفاعية يرمي العمال من ورائها إلى حماية أنفسهم ضد الشروط القاسية التي أحاقت بهم فوضى الثورة الصناعية وما خلقته من مصاعب اقتصادية .

كان الشغل الشاغل لممثلي النقابات ، التفاوض مع أصحاب الأعمال بالنيابة عن كل الأعضاء لتحسين أجور العمل ، لا سيما تخفيض ساعات العمل ، وتوفير فرص عمل للعمال العاطلين ، وتوفير فرص التعليم والمساكن الصالحة والتعويضات في حالات الحوادث والأمراض وغيرها من المطالب الاجتماعية ؛ وقد حققت القسم الأكبر من هذه المطالب خلال نضالها الطويل .

ليست النقابات التي ظهرت في بريطانيا بادئ الأمر وشعَّتْ بأنوارها على بقية دول القارة الأوربية منظمات إجبارية ، بل هي عبارة عن هيئات مستقلة عن الدولة تحقق فائدةً مزدوجة . إذ إنّ كل ما تتخذه النقابات من قرارات يكون معبراً عن رأي الأغلبية ، ثم إنها تعطي الأعضاء فرصة الخبرة والطريق الديمقراطي في المفاوضة وطرق الإدارة . فلا عجب إذا علمنا أنّ كثيرين من أعضاء الحكومات البريطانية السابقة وغيرها من الحكومات الحالية تلقَّوا أول تدريب لهم في الإجراءات الديمقراطية عن طريق النقابات إما كأعضاء أو كموظفين بها ، وإن الكثيرين ممن يحتلون مناصب هامة في الدولة بنوا أساس تجاربهم على اشتغالهم في شؤون النقابات ، من هنا برزت أهمية النقابات ودورها في حياة المجتمع . فأصبحت مدارس قائمة بذاتها . تخرج على يدها أبرز قادة الدولة ومسؤوليها .

المصادر

١ . أ . لبسون ، ما أسدته الديمقراطية الجديدة ذات الثراء لإنكلترا ، الفصل السادس والستون بعد المائة ، نمو الطبقة الوسطى ، نشرها بالإنكليزية السير . أ . هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد السابع ، أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي ، مصر (ب . ت) .

٢ . إدارة الاستعلامات بالسفارة البريطانية ، النقابات البريطانية (ب . ت) .

٣ . ألان بالمر ، موسوعة التاريخ الحديث ، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، بغداد ، ١٩٩٢ .

٤ . بيير لاركم ، النقابات البريطانية ، مصر (ب . ت) .

٥ . جون برايس ، نقابات العمال البريطانية ، القاهرة (ب . ت) .

٦ . عبد المنعم الغزالي الجبيلي ، تاريخ الحركة العمالية والنقابية في العالم ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٧ . كارلتون هيز ، التاريخ الأوربي الحديث ١٧٨٩-١٩١٤، ترجمة د. فاضل حسين ،بغداد ، ١٩٧٨ .

٨ . لجنة في وزارة المعارف برئاسة مجيد خدوري ، تاريخ أوربا الحديث ، بغداد ، ١٩٤٨ .

٩ . محمد قاسم وحسن حسني ، تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر ، مصر ، ١٩٥٤ .

(١) الجبيلي ، المصدر السابق ، ص٨٧-٨٨ .

١٠ . محمد مبروك نافع ، أوربا في القرن التاسع عشر ، صفحات من تاريخ الصراع بين الشعوب والحكومات ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

١١ . هربرت فشر ، تاريخ أوربا في العصر الحديث ١٨٧٥-١٩٥٠ ، ترجمة أحمد هاشم ووديع الضبع ، ط٦ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

12 – Alan Bullock, World History Civilization its beginnings, London 1962.

13 – Cecil Algernon, Queen Victoria and Her Prime Minister, London 1953.

14 – O . H . Cole, Attempts At General Union 1818-1839 . London 1953 .

15 – Herbert . L . Peacock, A History of Modern Britain 1815 to 1955, London 1976 .

16 – The Encyclopaedia Britannica, Vol. . 16 . ed. 15, U.S.A. 1995.

17 – Walter. L. Arnstein, Victoria Queen Microsoft Encarta All Right reserved.

19 – WWW Ask. Com.